

آخر ايام الترام

كان ياما كان



أستير ثابت

آفر أيام الترام

كان ياما كان

أستير ثابت

اسم الكتاب: آخر أيام الترام

تأليف: أستير ثابت

مؤسسة الدار: فاطمة محمد

تنسيق: فاطمة محمد

تصميم الغلاف: فاطمة محمد

تصحيح: أستير ثابت

الناشر: دار ياقوت للنشر والتوزيع

لم أجد رداً واضحاً عندما سألني أبي عن إصراري
على التوجه إلى الإسكندرية الآن في الشتاء
بالتحديد، كيف أخبرك يا أبي أن الإسكندرية
تعيد روحي الشاردة وتنعش قلبي المتصدع؟
لسببٍ لا أعلمه، ورغم أنني أمتلك هنا ذكرياتٍ
سيئة جداً، إلا أنني لم أنفر منها أبداً، ولم أحملها
وزر ذكرياتي الأليمة

الإهداء :

إلى مَنْ لم تتسَنَّ له رؤية الإسكندرية من قبل
إلى مَنْ شوّهت ذكرياته السيئة بلداً أحبّها بصدق
وإلى كل الذين فقدوا أحلامهم بعد أن كادوا
يلبسوها

وإلى "ترامي" العزيز، الذي لم تتسَنَّ لي الفرصة
لتوديعه

وإلى عزيزي الذي يشبه الترام في كل تفاصيله..

حضرتُ قائمةُ أغاني جديدة، حزمتُ حقيقتي
وتركتُ شعري على وضعه الغجري المتمرد،
واستعدتُ لترك كل المشاعر القديمة خلفي؛ فلا
مزيد من البحث عن مشاعر قديمة في أماكن
جديدة، ولا مزيد من الأغاني التي تصيبني
بضيق تنفس، ولا مزيد من النصوص الركيكة
المحملة برائحة الماضي.

الزوابع التي حدثت مؤخراً في حياتنا خللخت
أساساتنا، جعلتنا كلعبة بازل ينقصها الكثير،
والأكيد أن قطعي الناقصة لن أجدها في ذات
المكان الذي فقدتها فيه، أعلم أنها رحلة مخيفة؛
فكرة أن تترك منطقة الراحة ونبدأ من جديد في

مكان لا نعرفه هي فكرة مرعبة، ولكن المكان
الذي كنا نعرفه لم يعد يعرفنا، ولا أريد أن أشعر
بالغربة في أكثر الأماكن قرباً لقلبي.
سأهرب هذه المرة، فلنبحث عن قصص
جديدة، ونعقب رثائنا بروائح مختلفة، ونجعل
مسامنا تلمس أشياء مثيرة، لا بأس بالقليل من
الحنين، ولا بأس بتفقد أغانينا القديمة والسير في
الطرق التي أقسمنا ألا نسير فيها مجدداً، مسموحٌ
لنا بالانهيار والبكاء، فحتماً سيأتي وقت نتوقف
فيه عن النواح، ولن تعود جروحنا القديمة تؤلمنا،
والأهم من ذلك كله، أننا سنسمح لأنفسنا
بالبدء من جديد دون إحساسٍ بالذنب أو العجز

أعتقدُ أنني من الأشخاص الذين يعانون دائماً من
لعنة المسافات؛ فمنذ طفولتي وأنا أهوى الوقوع في
غرام كل ما هو بعيد عن عيني ويدي، وكل ما
لن أناله ولو وقفتُ على شعر رأسي، إنني متأكدةٌ
أنه لو حلم غيري بأحلامي تلك لتحققت، ولكنها
تصعبُ أكثر من المعتاد عندما أحلمُ أنا بها.
ورغم ذلك، لم أتوقف عن التطلع للنجوم، ولم
أفقد رغبتي فيها، ولكنها هي من تتخلى عن فرصة
أن تكون أحلامي.. ولي، وعندي.

أشعرُ أن الحزن قد تسرب إلى أحشائي، لم تعد
عيناي هما من تنطقان به فقط، فقد تخطيتُ
هذه المرحلة، والألم الآن يسكن داخلي، ابتلعتُه
جيداً حتى تفرحت معدتي، وابتلعتُ معه الكثير
من القهوة كي تداري مرارتها مرارة الوجع، أعلم
جيداً أنني أفسُدُ جدار معدتي وغرف قلبي،
ولكن القهوة لدي تعمل كمهدئ للألم، تُقلل
من حدة الذكرى، وتقتل الخوف من المستقبل،
تجعلني أشعر بالتحكم في أمور حياتي، وبأن الأمر
ليس بهذا السوء، فرغم كل المتغيرات التي
حدثت في حياتي، كانت القهوة هي الثابت
الوحيد، تلك المرارة الوحيدة التي آلفها.

كان الطريق خالياً، لا يليق بزحمة أفكاري، لذا
وضعت سماعة أذني وأمسكت هاتفي وتركت
اختيار الأغنية للصدفة، أفعل ذلك حتى لا
أشوش عقلي باختياري للأغاني التي تلائم حالة
قلبي، أترك الأمر دائماً لحركة يدي العشوائية،
فوقع الاختيار على أغنية "هكي عنك" ليردد
هاني عادل المقطع الذي ينخر قلبي: "سايبة
ريحتك بين هدومي، سايبة قلقك بين همومي،
سايبة صوتك يحاوطني" رغم أنك لستَ هنا،
ولكنني لا زلت أحكي عنك للأماكن،
ولأصدقائي، ولبحر إسكندرية، وكلما حكيتُ
انفجرتُ من البكاء، لا أتقبل فكرة أنني أزور

أماكن خالية منك، خالية من صوتك ومن
رائحتك التي ظننت أنني نسيته، ملوحة البحر لم
تُشت عقلي عن رائحتك التي لطالما حفظتها عن
ظهر قلب

أعتقد أنهم سمّوا من انهياراتي غير المبررة
ونوبات حزني الشديدة ورموني في الإسكندرية،
البلد الوحيدة التي تستطيع إحيائي من جديد،
تجعل لمعة عيناى تعود وأستطيع التنفس دون
أن أشعر بالثقل والحدرد، وهم محقون، فأنا أفضل
جداً "أنا عبطة" أجل كما قرأت، ذلك ما قاله
طبيبي لي أن أقوله لنفسي عندما أقول إنني
أفضل وأهدأ ولا تصيبني ذكراك بضيق تنفس

وشكوى كثيرة، أنا عبيطة حقًا، لأن الطريق
الذي سلكته لنسيانك يُرجعني لك مجددًا، أنا
عبيطة، هذه المرة لأنه لو رأى ذلك النص
لأرجع لي مبالغى الطائلة واعتزل المهنة، توفيراً
لمالى ولجهوده المبذول، ليس موضوعنا.. أتعلم كم
أحب إسكندرية، وأغاني إسكندرية، وطريق
إسكندرية، وسماء إسكندرية؟ كل شيء هنا
يصيبني بحنين لا ذع وحلو، رجفة قلبي تزول
عندما أشم رائحة البحر هنا، يداعب أطراف
قدمي، ويسحب مشاعري وطاقتي السلبية
وأمنياتي غير الكاملة، وخيبة أمني، وخوفي..
ليالي شتاء إسكندرية مبهجة وجميلة، ورغم

تكدها بالناس إلا أنها لا زالت محتفظة برونقها،
كل شيء مثالي، ينقصه شيء واحد وهو أنت،
لا أستطيع أن أخفي ذلك، كلما غمرتني بهجة
عارمة وتذكرت أنني لن أستطيع مشاركتها معك،
بل والأسوأ أن أشاركها مع غيرك، أصاب بلذعة
حارقة في صدري، تجعل النوات تنشأ في
عيناى، وأمطر أنا وسماء الإسكندرية، ولكنى
بخير صدقنى، ما دمتُ فى هذه البلد الجميلة التى
تسحرنى كلما وطأتها، فأنا بخير.

أفقدك اليوم أكثر من المعتاد، لا أدري لماذا
أصبتُ بوسوسة أن كل البشر أصبحوا يشبهونك،
أشيرُ إليهم وأخبرهم أنهم نسخ منك مبعثرة
حولي، فيقسمون أنني جُنت، ليتك هنا.. كنت
سامحتك على كل ما فعلته، أو بالأحرى ما لم
تفعله.

اليوم أخبروني أنك لم تكبد مشقة اختياري،
استسلمتَ سريعاً ورحلت، قاومتهم بشدة
وبكيتُ.. بكيت كثيراً، ولكن في النهاية رضخت
لقولهم، لماذا لم تتمسك بيدي للنهاية؟ لماذا تركتني
في منتصف طريق لم يكن طريقي من البداية؟

هم محقون، أنت لم تختبرني، لستُ حزينة إثر
ذلك، فربما لم أكن أفضل اختيار، لم أكن تلك
الحبيبة التي تُقطع لأجلها البلاد.

تحولتُ في بضعة أشهر فقط من الفتاة اللامعة
المقبلة على الحياة -ليس كثيراً- المواظبة على
الكتابة والقراءة، العاشقة للأفلام الكورية، إلى
الفتاة العشرينية مذبذبة المبادئ والهوية، فاقدة
لأكثر من نصف ذاكرتها، ورفاقها، لا أمتلك
صديقاً لدربي سوى مهدثاتي التي وصفها طيبي
لي، كي يكفّ عقلي عن إعطائي الأوامر بالقفز
أسفل أي سيارة نراها، وبالطبع بواذر
الاكتئاب التي تلازمي منذ أشهر، أرتعب من
أن يتمكن مني، أن يمتص طاقتي ويتركني
خاوية، ذابلة الملامح والأحلام، وبعد أن كنت
شابة تحلم بتغيير العالم، بالكاد لدي الطاقة لتغيير

ثيابي، وبعد أن يتمكن الروتين من أيامي وأعود
إلى سريري كل يوم منهكة الفكر، مخدرة
الحواس، أحقن عروقي بأي شيء يتمكن من
جعلني أشعر بلحظات السعادة الزائفة الخالية من
المعنى.

أجر نفسي للنهوض، لنخوض شيئاً جديداً،
مشاعر جديدة تطغى على مشاعري القديمة التي
تصيبني بأزمة قلبية، ولكني كلما شممت رائحة
الماضي سقطتُ باكية، وفتك الأسئلة بي؛ وبين
كيف ولماذا يحترق عقلي، أتمنى لو فقط ظللتُ
على تلك القوة الزائفة التي أعطاني إياها طبيبي،
وأحضان رفاقي الدافئة، وطعام أختي وقهوتها،

كلها أشياء دافئة أعادت فيَّ النفس ودفعني
لأُكل، وألاً أنهار لنوبات حزني وأستسلم للأغاني
القديمة، ولكنني أضعف من ذلك، ولا زِلْتُ
أحكي لك عن قصة انتهت منذ زمن ولكنها
أنهتني معها، لا عزاء لي الآن سوى أن أقنع
نفسي أن الأمر انتهى، وأن أُغلق الباب الذي
من الأساس صُفّق في وجهي، لأن الرياح التي
تهب منه كريهة جداً وتثير جهازني العصبي.

فَأَنْتِ تَعِيسَةٌ يَا هَبِيبَتِي

تَعِيسَةٌ لِأَنَّكَ تَلَا حَقِينَ سَرَابًا، تَلَا حَقِينَ طَيْفٍ مِنْ
شَكْلِكَ عَلَى مِقَاسِ قَالِبٍ ثُمَّ اخْتَفَى، فَلَا عُدَّتِ
أَنْتِ وَلَا عَادَ هُوَ مَعَكَ، لِذَلِكَ أَخْبَرْتُكَ أَلَّا تُفْنِي
يَكَانُكَ فِي كَيْفَانِ أَيِّ شَخْصٍ، لَا تُطْفِئِي بَرِيقَكَ كَيْ
تَلَأْمِي الْعَتَمَةَ، بَلْ تَحْرِي.. أَرْكُضِي وَاسْمَحِي
لِنَفْسِكَ بَعِيشَ تَجَارِبَ جَدِيدَةٍ، تَجَارِبَ تَرُدُّ
رُوحَكَ الضَّائِعَةَ وَتَجْعَلُكَ تَدْرِكِينَ أَنَّكَ مَبْهَرَةٌ،
وَلَسْتَ بِحَاجَةٍ لِأَحَدٍ.

أَنْتِ الثَّابِتُ الْوَحِيدُ وَسَطُ كُلِّ هَذِهِ الْمَتَغَيِّرَاتِ،
أَنْتِ الْحُبُّ الصَّادِقُ، أَنْتِ كُلُّ الْفُرْصِ الضَّائِعَةِ،

فافتحى الباب على مصراعيه، لا تخشى الرياح
العاتية التي تطرحك أرضاً، لا تخشى دخول
الغرباء وعبثهم بقلبك، لا تخشى أن تكوني كلَّ
الألوان في آنٍ واحد، أن ترفضى ما لا يناسبك
وإن ثاروا عليك، أن تكوني حنونةً وقاسيةً،
راغبةً ومتمنعةً، منتظرةً وراحلةً

يا حبيبتى، أنا أحبك ولكني أخشى عليك مني،
أخشى أن أبهت عليك فأطفئ ألوانك وأبصم
بسوادي، لا أريد أن يتحرج صوتك بسببي،
بسبب خوضي نزالاتٍ لا تنتهي، بسبب جُبنى..
وعندما أتت لي فرصةٌ للتضحية ضحيتُ بك أنتِ!

أَنْتِ يَا حَبِيبَتِي لَامِعَةٌ وَمُكَابِرَةٌ، شَعْنُونَةٌ وَمُطَيَّوْرَةٌ،
لَا تَنَاسِبُكَ قَوَالِبُهُمْ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ تَرْفُضِينَهِمْ بِشِدَّةٍ،
وَتُخْشِينَ أَنَّ يَكْسِرَ ضُلْعَكَ أَوْ تُقْصَ أَجْنَحَتُكَ،
وَلَكِنَّكَ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ وَاثِقَةٌ أَنَّكَ
سَتَسْتَطِيعِينَ تَحْقِيقَ السَّعَادَةِ، وَأَلَّا تَجْعَلِيهِمْ يَمْسُوا
تِيَارَ الْحَيَاةِ الَّذِي يَرُكُضُ فِي شَرَايِينِكَ، لِأَنَّكَ
تُؤْمِنِينَ أَنَّ هَذِهِ لَيْسَتْ تُرْبَتُكَ وَلَا هَذَا أَصْلُكَ،
بَلْ أَنْتِ يَا حَبِيبَتِي مُخْتَلِفَةٌ وَمُخَالَفَةٌ لِلْأَعْرَافِ
وَالْأَدْيَانِ، الْأَصْلُ وَالْفَصْلُ وَالْعِرْقُ، مُجْنَسَةٌ
وَمُطَيَّوْرَةٌ

وَحَدِي مَنْ يَفْهَمُكَ، مَنْ يَفْهَمُ تَمَرْدُكَ
وَرُضُوخَكَ، وَمَتَى تَصْعَدِينَ لِسَابِعِ سَمَاءٍ وَمَتَى

تسقطين على جذور رقبتك، وحدي من يعلم أن
خلف قناع الشجاعة ذلك خوفاً مطلقاً؛ خوفاً من

أن ينال منك ما لا تقدرين عليه، وخوفك
الأكبر أن تصبحي ما لا تطيقينه الآن، خوفك
أن تضيق الأرض عليكِ حتى تختنقِ، بل ألا
تجدي أرضاً تسع قدميكِ، أن تُرفضِ بعد أن
تُرفضِ كل شيء لأجل البقاء

أنتِ يا عزيزتي بأسة تعيسة لأنكِ مقيدة، بل
ومجبورة وكل شيء يخرج عن سيطرتكِ، وكل
أشياءكِ الجميلة تنزلق.. ولكنني أقسم لك أنها
ليست بهذا الجمال، بل رغبتكِ فيها صبغتها بجمرة
الجمال، ولكنني أعلم أنكِ يوماً ما ستُتمسكين

بلحظة الحب الكامل ، لن يهرب منك ولن
يستطيع أحد أن يحجبه عنك، فلا تحزني يا

حبيبتى،

وانطلقى، تذوقى أطعمةً أخرى غير المأساة
والانتظار والوجع، اشتمى روائح جديدة غير
روائح الماضي والخيبات، المسمى أشياء جديدة
واشعري بأنك على قيد الحياة والهواء يضرب
وجهك، أنتِ يا حبيبتى حية، حرة، ولا لأحد
سلطة عليك، انطلقى يا حبيبتى وسأكون دائماً
هنا أشير لك على ما تجهلينه، وأبعدك عما تعلمينه
جيداً ولكنك لستِ قادرة على مغادرته.

آه لو تعرف كم أنا مُولعةٌ بالإسكندرية، تلك
البلدِ الشاعرية، الإسكندرية مدينة الحب،
ليست باريسَ أبداً، فباريس مدينةُ الأثرياء، وأنا
لا أؤمن أن الأثرياء يُقدِّرون الحب، لكنَّ ثمةَ
فقراءٍ في الإسكندرية يعيشون على الحب، على
ساحلِ المدينة، على فُتاتِ الذكريات، في هذه
المدينةِ تكمنُ الذكريات، فالمدينةُ لا تنسى
ضحكاتِ العشاق، ولم تمحُ أساميتهم المكتوبةُ
عليها، لا ينسى البحرُ الأماني المعلقةَ به، المُلَقاةَ
مع الصخورِ المُفتَّتَةِ والقلوبِ المكسورة، هنا
وعودٌ، وهنا خذلانٌ، هنا كان اللقاءُ الأولُ، وفي
الشارعِ الآخرِ كان اللقاءُ الأخيرُ

الإسكندريةُ مدينةٌ لا تعترفُ إلا بالحُبِّ
والذكرياتِ، تأبى النسيانَ، فالموج الذي شهد على
عناقٍ حارٍّ يشهدُ الآن على دموعٍ حارقةٍ، الشاطئُ
الذي يعرفُ خطواتِ العشاقِ يعرفُ أيضًا
خطواتِ الراحلين ودندنةَ أغانيهم الحزينة،
الأماكنُ لا تنسى أبدًا زائريها، وأماكنُ الله التي
سمعت دعواتنا لا تنساها أبدًا، لم أجد مبررًا لحبي
لتلك البلدِ العجيبةِ، رغم أنَّ كُلَّها خطواتُ خطوةٍ
بها تنقلبُ حياتي ويحدثُ شيءٌ يجعلُ أمي تقسمُ
ألا أخطئها مجددًا، ولكن ماذا أفعل؟ حتى
حُبِّي للبلادِ يأتي بالعثراتِ، وكم أعشقُ ذلك

الإسكندريةُ هي البلدُ الوحيدةُ التي أرغبُ في
زيارتها، رغم كُرهي الشديدِ للسفرِ وتركِ سريري
وبلدي الهادئة، ولكن طريقُ الإسكندريةِ
يشعُرني بالحياة، يطمئن قلبي، حينما ألمحُ شاطئها
الصاخب، وحينما أشمُّ رائحةَ الشوارعِ الدافئةِ
والمُحِ الشغفَ في عيونِ الناس، أظنُّ أنني لو
عشتُ هنا لن أفكرَ أبداً في الانتحار، كيف ينتحرُ
شخصٌ ويتركُ ذلكَ الجمال؟ هنا أكونُ حرةً لا
تُكَلِّني قيودٌ، هنا أكونُ حقيقةً، يتردُّ شعري
العجري مع هواءِ المدينةِ بدون أن أُقيدهُ برباط،
هنا الوقتُ يمرُّ أسرعَ من نسماتِ الهواء، هنا
القهوةُ لها مذاقُها الخاصُّ، هنا الأغاني التي تُسمعُ

تُبصمُ في الذاكرةِ باسمِ الإسكندرية، هنا طفولتي
ومراهقتي، هنا الجدرانُ التي رسمتُ عليها في
صباي، وهنا أولُ عناقٍ منك، وأولُ توبيخٍ من
أبي، هنا ارتديتُ ذلكَ الفستانَ القصيرَ الذي
جعلنا نتشاجرُ، هنا كان أولُ حبٍّ وآخرُ حبٍّ
أنا أكنُ هنا يا عزيزي، مهما وُزعَ جسدي،
وذكرياتِي على محافظاتِ مصرَ، فجزئي الأكبرُ
سيظلُّ هنا، أنا أحبُّ الإسكندريةَ كثيراً،
وأحبُّكَ.

ما الذي يشعرك بأنك على قيد الحياة؟ ما الذي
يشعرك بأن كل خلية في جسدك تتنفس بعمق

وحرية؟

فناجين القهوة توقظ عقلي وجسدي، ولكنها
تبقىهما في حالة آلية تجعلهما يعملان على
الأساسيات فقط، وتعمل كمهدئات في أوقات
كثيرة، وذلك يتنافى مع مهمة الكافيين
الأساسية، ولكن ما يدفعني دفعاً بحالة من
الحماس والشغف والإقبال على الحياة، وما يوقظ
قلبي.. هو الحب، وإن شعرتُ أنني لست جيدة
في حب رجل ما بعينه، فأنا أحب كل شيء في
حياتي؛ أحبه لدرجة تكاد تقتلني، أحبه لدرجة

أُني أنصهر فيه وأُبديه على نفسي، أحب بصدق
وأُتسبث للحظات الأخيرة حتى تُبتر يدي من
شدة تمسكي.

لذلك أتحمل المسؤولية الكاملة عن التلف الذي
أصاب روحي وقلبي إثر تمسكي وعنادي، أنا من
قررت الاندفاع، وأنا من قررت البقاء عندما
قالت كل المؤشرات لا، أنا من قررت التعامي،
وأنا من أصدر قرارات غبية في حق نفسه، أنا
من يجب عليه تحمل دخوله هذه الملاهي؛ تارة
يشعر بنشوة التحرر والخروج من عمق الزجاجة،
وتارة يكاد يخنق من بشاعة الحياة من دونهم.

لن أتحول لشخص متبدل قاسٍ ولو اجتمع العالم
كله لإقناعي أنني هكذا سأحي نفسي وقلبي، لا
بأس بأن أبذل روحي في سبيل تجربة، ولا بأس
بأن يتهشم قلبي مئة قطعة، فالحزن واليأس من
مكونات الحياة الأساسية التي تُنتج مشاعر
جديدة، حتى وإن كانت قاسية، تُنتج فناً
وحياة، لن أتعجل مغادرتهم لحياتي، ومقاومتهم
لن تفيدني بشيء، عاجلاً أم آجلاً سيغادرون
حياتي، وستعود طاقتي، وسأندفع مجدداً، وأسمح
لقلبي بتجارب جديدة، سأسمع حكايات وأرتكب
حماقات، سيعود تيار الحياة بداخلي لينبض، وإن
كانت كل المؤشرات الآن تنفي قولي هذا، أنا

أعلم الحقيقة، أعلمها في قرارة نفسي أنني أستحق
أن أعيش وأن أحب بصدق، بكل زلاتي
وعثراتي، أعلم أنني يجب أن أتوقف عن ظلم
نفسي، ومداواة ما تم كسره، أو على الأقل
تلصيمه، وأن أركض مجدداً وأتخلى عن حذائي
ذي الكعب العالي، أتخلى عن جدائل شعري
وأن أتركه حراً يتنفس، وأن أضع كحلي الأزرق
ليس ليغطي على ملامحي المرهقة، بل ليجعل
نبض عينيَّ يعود، ورويداً رويداً تعود نظرتي
المشرقة للحياة، وإن تخلت عني كل أسباني للحياة،
وإن ابتلعتُ على مضض رغبتني في خوض يوم

جديد، سيظل قلبي يتنقل من هنا لهنالك بحثاً عن
أسباب جديدة.. بحثاً عن الحب والأمان.

تقول فيروز: "روح اسألون عالي وليفه مش
معه.. مجروح، مجروح الهوى، شو بينفع موجوع
ما يقول عالي بيوجعه؟"

تعطيني توصيفاً لحال قصتي التي لا أقوى على
سردها بشكل كامل حتى الآن، ولا حتى أقوى
على مصارحة حروفي بنهايتها، قلة قليلة فقط هي
من تعلم لماذا أسير وأنا أجر خلفي أذيال الخيبة،
ولماذا ماتت لمعة عيني؟ أنا الذي منذ قررت أن
ألاحق حضورك بعد الغياب أصبح نصف نومي
يقظة.

أتذكر كيف نجونا من سموم العمر؟ أتذكر أول يوم
رأيتك فيه وكيف كنت تتجنب النظر إلى عيني؟

كيف كانت ترتعش يدك في كفي، وكيف
كنت أوبخ أصدقاءنا عندما يضعوننا في خانة
الحب سوياً، ونحن.. نحن أصدقاء فقط! ما لا
تعلمه أنني، ورغم أن عقلي مثقوب ويسرب
أغلب الأحداث والمواقف، إلا أنني لم أنسَ
لحظة واحدة جمعتنا؛ ذكرياتنا دُقت على جدران
عقلي بأزميل

انتشليني صوت "مجدي" الجالس بجاني ليتساءل
عن سبب شرودي، لأخبره أنني اخترت المكان
الخطئ لنجلس فيه، هذا المكان كان ينبض
بالحنين، منذ سنة واحدة كان حياً.. أما الآن
فقد قُطع عنه الماء والهواء "أهرب من قلبي

وذكرياتي وأروح على فين يا مجدي؟" ذكرياتنا في كل مكان حتى لو لم تخطُ قدماه هنا، هنا كنت أحكي عنه بشغف لأصدقائي، هنا أخبروني أنني ألمع، أتوهج، والآن أنت تخبرني أنني جثة هامدة! ما الذي يفعله الحب ليجعل التدفق الطبيعي

للحياة يتوقف؟

أردت أن تظل الأماكن تحتفظ بذكرياتها، بطيورها المغردة وفراشاتها الجميلة، أما الآن فكل الطيور المحلقة حولي وداخلي طيور جارحة بشعة، أردت فقط أن آخذه وتلامس روحانا الشاطئ، لن نكثرث بالمتعصبين فنحن كما دوماً متمردين على التقاليد والأفكار، نخلص من شرقيته لأجلى

يا مجدي، نظر لكل شيء بعين قلبه، أما الآن
فيحدثني بالمنطق واستحالة وجودنا معاً! هجر قلبي
وتركني أتكئ هنا بمفردي وأنا أحترق، ورغم أن
البحر رش عليّ رذاذه إلا أنه لم يطفئني، عادت
ذكرياتي المطمورة تنفجر من جديد، عادت أقوى
وأشد، لم يهدئها غيابه، ولكن يكفيني الآن أنني
لا أتجرع هذه المأساة بمفردي، وأنتك هنا تسمع
ثرثرتي التي يعترف بها لساني وحده.

إن ما يجعلني أحيا فعلاً هو أن أخرج من
قوقعتي، من منطقة راحتي، وأن أنجرف
لأخوض أفعالاً جديدة، ألتقي بأناسٍ جدد،
نصيح كثيراً ونود لو نكسر حواجز الكون معاً،
نتقاسم الخيبة والوجع، وربما نتشابه كثيراً،
أخبرتُ طبيبي عما يحدث معي وكيف أصبحتُ
بهذا الانفتاح فجأة، فجأة تخلّيتُ عن كل
أسراري وأفصحتُ عنها وكأنها ليست أسراري
العظيمة، حتى أخبرني أن هذا ما يجب أن أفعله
فعلاً، ولا يجب أن أشعر بالخزي لكشفي
أوجاعي للقريب والغريب، لوالدة صديقتي التي
دعّنتني لتناول الإفطار الرمضاني لأول مرة،

ولصديقتي تلك التي كانت تلاحظ بالفعل
انتكاساتي وضعفي في أوقات كثيرة ولكنها
انتظرت أن أفصح أنا، يبدو أن مقدار الوجد
الذي تشربه جسدي أكبر من قدرتي على تحمله
وحدي، لذلك تسرب من ثغرات جسمي دون
أن أدري، وحقاً لم أعد أهتم.. هذه أنا ببأسي
وضري وإن رفضوني.

لذلك نصحتني صديقتي أن أنتبه لما أقوله لأنها
تعلم طيشي، وتعلم أنني عندما أنفتح لا أصمت،
لذلك رميت أذني أكثر اليوم؛ استمتُّ لقصاص
الحب التي تستحق فعلاً أن يكتب عنها، ليست
كمثل حواديت المراهقين الذين لا يعلمون كيف

يتشبثون ببعضهم أو حتى يبنون علاقة صحية،
أخبرتني أمها ضمن حديثها: "ربنا سخره ليّا علشان
ده اللي أعيشله حياتي" .. وبعدها وقفتُ لأعد
القهوة مع مريم لأخبرها أنني لا أستطيع أن
أنسى ما قالته أمها، لتضحك وتخبرني: "أنتِ لسه
هناك؟" أجل يا مريم، أمها ليست بليغة أو حتى
أدبية لتستطيع أن تختار هذه المصطلحات
بالتحديد، الله سخره لها! لبقية حياتها! أهذا هو
الحُب؟ آه يا خالتي، كم أود أن أشكو لكِ عن
ركاكة جيلنا، وسوء حفظنا نحن،
لاحظت مريم انغماسي في حديثها لئتمازحني:
"كده هنستنى نص بالليل" وبعيداً عن مزاحها

فحقاً إنه يوم يستحق التوثيق، يوم يكتب في
صحيفة تعافٍ، وإني أقر أنني أشعر بالحب
والاحتواء، وجرعة الحنان الزائدة التي صنعتها لي
أما في هيئة "محشي ومكرونة بشاميل" أحترم
ثقافة عائلاتي في محاربة الاكتئاب بالمحشي،
وصنع مريم لقهوتي والكثير من القطايف،
سأحزن جداً من نفسي لو انتابني نوبة حزن
مفاجئة وانهرتُ باكياً على أسبابي السخيفة،
فحقاً إنها أشياء تستحق أن تُحس، وإن كانت
معضلي أنني أحس زيادة عن اللزوم، إن كان
حزناً أم فرحاً، ولكنها ربما نعمة، وأدرك ذلك
حينما تأتي أوقاتُ أخدر فيها تماماً ولا أحس

بنشوة لأي شيء، لا شيء يستطيع أن يحرك
مؤشر مشاعري يمينا أو يساراً.
أحب الطرق الجديدة، الأحاديث الصادقة،
وتذوق أنواع قهوة جديدة، وتكرار الأغنية
الروسية التي أجدها ملائمة لحالة قلبي حتى لو لم
أفهم ثلث كلماتها، أن أترك رغبتني في الانغماس
في هاتفي لأكتب، ووضع سماعتي، وأن أحادث
الشخص الذي بجانبني قليلاً، أسترّق من قصصه
لمواضيعي وأبعد غبار الحزن عن جسده، وأحاول
إخباري أنني لن أستطيع تغيير العالم كله، وأنا
بالكاد يصعب عليّ تغيير ملابسي، ولكنني على
الأقل أستطيع تغيير عالمه هو، بقدر ما يمكنني،

دون أن أتلبس شخصية المنقذ، حتى يهدأ وأعود
للأغنية التي تتردد في الخلفية وأرمي رأسي متأملة
ما تبقى من الطريق، وأتهد.. أتهد جداً، وكأنني
مع كل تجربة أو حديث يُولد جزء مني، جزء
أصدق وأقوى، جزء يريد أن يعيش حتى وإن
تألم.

أُتساءل يا عزيزي، ما دمتَ تلاحظ شرودي
الذي لم يتعدَّ ثانيتين، وخفوت صوتي وضيق
نفسي، ولا تزال تلتقطني متلبسة عندما تملكني
مشاعر اليأس والتخاذل، فلماذا لم تحاول مجدداً؟
لماذا تترك صوت سماعتي يعلو بالأغاني كي تطغى
على صوت أسئلة عقلي حتى أُصبتُ بالصمم؟
كي لا يملكني الغضب منك، غضبٌ لأنني
منحتك القدرة على السيطرة على مشاعري حتى
بعد رحيلك، غضبٌ لأنني لا أزال تحت
تأثيرك، غضبٌ لأنك تتجاهل إلى أي منحدر
وصلتُ بي هذه العلاقة، وغضبي الأكبر أنني لا
أوجه ذلك الغضب نحوك

أشعر بالعجز الكافي الذي يجعلني أخبو كشعلة
غُمِرَت في ماء، هل فقدتَ عقلك مثلي أم أنك
تظن أنك هكذا استعدته؟ هل كنتُ أنا إثمك
الأكبر الذي تبرأت منه الآن؟ الآن أنا الوجهة
الخطئة التي تُعيد تشكيل حياتك في اتجاه
معاكس عنها.. أنا يا عزيزي؟

لديّ دوماً معتقداً يخبرني أن الأماكن حيةٌ
تتنفس، تحتفظ بالمشاعر والأصوات
والضحكات، تبكي لدموعنا وتضحك عندما
نضحك، أكاد أجزم أن هذه الصخور حزينةٌ
جداً لأنني -وبعد مرور سنة- أتيتُ لها بحكايات
مختلفة، وأحلام مختلفة، وصراعات مختلفة،
ولكنني لا زِلْتُ أبحثُ عنك؛ في درجات
الحرارة ونشرات الأخبار، في أي حديث عن
السياسة والدين، ما زِلْتُ أفتقدك بين خصلات
شعري، وأشم عطرك بين كتبي، وأنتظر أن أراك
صدفة، رغم أنه لا تجمعنا بلد واحدة، أراك في
غربتي أكثر من الذين يحيطون بي، ادعُني مجنوناً

إن أردت، ولكنني لا زِلْتُ هناك، أُموتُ
خصاماً وهجراً كل يوم، وأذبل وأنا لا زِلْتُ
انتظرك.. أنتظر أن أراك في أعين الناس
وملاحظهم، وكأنني أبحث عن طفل ضاع مني
وتاه، أو أبحث عني أنا..
أفتش عن عنوانك القديم المرفق بذاكرة الأيام،
أفتش عنك في المحافظات التي تُبعدنا، يقطعون
لأجلي ألف ميل وأنت لا تستطيع أن تخطو
خطوة واحدة! تلك التفاصيل تلهب مشاعري
وتصيب قلبي بالقروح، فقلبي لا زال يصارعني
من أجلك، وتفوز أنتَ في كل مرة، لأنني
أؤمن بك وإن كفروا، وإن تدمروا من كثرة

تدمري من غيابك وانتظاري لك، فأنا لا
أستطيع النظر لاتباه آخر حتى وإن حاولت..
وربما صدق قول أحد أصدقائي لي إنك ذلك
الداء العضال الذي لا شفاء منه، ولا أريد أن
أُشفى..

مُولعة جداً بالإسكندرية، فهي تمتلك سحراً
خاصاً؛ سحراً يميزها بصخبها وزحامها وجوها غير
المفهوم، بل الأهم من كل ذلك هو وجود
أختي العزيزة بها

مادلين، مهما كثر عنادي واستبدادي تبقين
الوحيدة التي أسمح لنفسي بالرضوخ لها، الوحيدة
التي أنكشف أمامها بضعفي وخلخلتي النفسية كي
تخبرني أن "باب النجار مخلع" أقرّ لك أنك محقة،
فكيف لمعالجة نفسية أن تجلس أمامك تتعاطى
كميات هائلة من النيكوتين والكافيين، وتحادث
طبيبها النفسي وكأنها في موعد غرامي!

ولكن تعلمين، قد تخلّيتُ عن جلساتي تلك فور
سفري معكِ؛ فمن أسرار الإسكندرية أنها
تُحييني، تعيد لمعة عينيّ وحيوية قلبي، كيف كان
يمكنني إخبار ذلك لأبي عندما سألني عن
مبرري للسفر؟ عذرته، فهو لم يرَ تلك الشروخ
التي التأمت بمجرد أن أمسكتُ بتذاكر السفر،
واكتمل شفائي عندما وقفنا لنصنع القهوة سوياً
ونتحدث، ونبكي ونولول، ثم نهض لنشغل
الأغاني بأقصى صوت حتى تسبينا بانزعاج سكان
العمارة كلهم

أنا أحبك حقاً، أحب تواجدنا معاً، وأحب أنكِ
ركني الآمن وبئر أسراري، وأحب أن أراكِ

ببخير لأنني حقاً لم يبقَ لي غيرك، لستُ مستعدة
لخسارتك أبداً، أنتِ ومشاغبتي الصغيرة "بيري"
التي تشبهني كثيراً في عنادي وتقلباتي المزاجية،
أحبكما جداً وأحب تواجدكما معي، أحب الصداق
الذي يصيبني إثر شجاراتنا ومُحادثاتنا التي لا
تنتهي.

عزيزتي ندى

لقاءاتنا كالعادة لا تُدير، بل تُترك هكذا للأيام

التي لم تفشل في أن تحضرك لي في وقتك

المناسب؛ مرة وأنا مهزومة من الثانوية العامة،

خائبة الرجاء ووحيدة، ومرة وأنا على مشارف

أزمة نفسية قاسية

دوماً كنتِ هنا يا ندى، أكاد أجزم أنكِ كظلي،

لم تتخلفي عني ولم تديري ظهرك لي أبداً، تمسكين

بيدي رغم صياحي في وجهكِ بأني شخص

يُسقط أشياءه الجميلة ولا يعرف للسعادة طريقاً،

ولكنكِ هنا يا ندى، تنتظريني وتدفعيني

لأنهض مجدداً

تحضرين لي كعكاً وحليباً وأشياءٍ المفضلة المعبقة
برائحكِ الجميلة، وتخبريني أن أفتح قلبي لتجارب
جديدة، ولا أقف هناك أنظر لما هو ليس لي
حبيبتى ندى، أشكركِ لتواجدكِ معي، ولمشاركتي
دموعي في أوقات أنجل فيها حتى من نفسي، أنا
أحبكِ جداً، أحب سهراتنا وسيرنا وحدثنا عن
كل شيء وأي شيء في نفس الثانية، أحب
القهوة معكِ، أحب جلسات "البلكونة" التي
تشهد على أسرارنا وخيالاتنا وكل طموحنا المتكسر
أتمنى أن تظلي ثابتي الوحيد وسط كل هذه
العواصف، أن تظلي ندى حبيبتى، وأن يظل
السابع والعشرون يوم حظنا.

بعد يوم حافل بالأحداث وبعد نفاذ طاقتي
الاجتماعية، أعود لشرنقتي أخبوا مجدداً، أزيل
إكسسواراتي، وأُجَمِّ شعري وأحبسه في ربطة،
ولأن جمبي لا يتسع بأن أختبئ أسفل السرير
فأختبئ بداخله، أتنفس لأن أخيراً يوماً قد مر،
ولكنني لستُ على أتمّ استعداد لخوض يوم آخر؛
رغبتي في الحياة باتت شبه منعدمة، أو في
الحقيقة أنا فقدتُ قدرتي على الحياة، لا أعلم
كيف ذابت روحي وانصهرت في كل شيء
لامسته حتى لم يعد لي شيء منها
عودة إلى صلب الموضوع، أريد إخبارك أن
الأمر خرج عن السيطرة؛ لم أعد أستطيع أن

أسيطر على أفكاري وباتت تتسرب من فمي
بصوت جهوري عالٍ يلاحظ، وليس لي قدرة
على تفسيره، أفكاري فاضت من عقلي وتسربت،
والأسوأ من ذلك هو أن يأتيني الالتياح فجأة،
بدون سابق إنذار، وهذه قوة الالتياح؛ أن يأتي
وإن اجتمع أهل الأرض كلهم حولي، كلها
لحظات إدراك مباغتة تكاد تقتلني

أتذكر حديثي لك عن أنني فقدتُ قدرتي على
الكتابة؟ أمتصُّ ما يحدث معي دون رغبة في
إخراجه من داخلي، ذلك ترك بداخلي سؤالاً:
هل لأنني تعافيتُ بالكامل فلم يعد هناك أهمية
لوصف وسرد ما حدث، أم أنني أخاف أن

أتعافى بالكامل لذلك لم أعد أرغب في الكتابة؟
لأنني لو تعافيتُ منكَ فعني ذلك أن القصة
انتهت، وأنا لا أريدها أن تنتهي، والأسوأ إن
كانت حروفي قد ملت مني ووجدت أنها قدمت
أفضل ما عندها في ذلك الموضوع، وأنها بحاجة
لمواضيع جديدة لنعيشها، لنعرف كيف نكتب،
سمتُ أنا ملي طعم الخيبات وشموق لمشاعر
جديدة.

قائمة المهام لعامي العشرين:
تعجبنى هذه الصياغة.. أشعر أنني أصبحت امرأة
ناضجة، وذلك عمر الزهور كما يخبرونني، أما في
اعتقادي الخاص فالنساء دوماً مزهرات
وجميلات، حتى لو نال الزمن من رشاقة
أجسامهن ونضارة وجوههن
عودة لقائمة المهام، حسناً.. لا أريد أن يظل
قلبي يتنقل من بيت لآخر بمنتهى الترحاب
موحياً لنفسه أنه قد وجد الاستقرار أخيراً، لا
أريد أن أستمّر في إعطاء نفسي للآخرين وأبقى
كقطعة بازل غير مكتملة، لا أريد أن أنغمس
في شخص حتى أوشك على الاختفاء، لا أريد

أن أحيا حياة زائفة لإرضائهم، ولا أريد قسوة
في حياتي مجدداً.

لا مزيد من الهروب ولا الإنكار، دعنا نتقبل
شتاتنا وأنا مزيج من كل شيء وعكسه، أنا
مزيج حيوات مختلفة وعليّ أن أتقبل ذلك، أتقبل
أن أحلامي وردية زيادة عن اللزوم وأن
الصخب الذي في قلبي لم ينل من قدرتي على
التمني، لا أريد أن أكف عن التمني والأحلام
خوفاً من ألاّ أنا لها، لا أريد أن أخشى المشاعر
الجديدة كي لا تحك جروحاً قديمة، لا أريد أن
أتجنب الحب احتراساً من جرح قديم

أنا أحيا بكل جوارحي ولا يحزنني ذلك، ربما
يتسبب لي في أرق يمكث معي ليالي طوال،
ولكن من أنا دون ذلك الألم؟ دون الغضب
وجلد الذات وعصبيتي المفرطة، اليوم أخبرني
صديقتي أن أكثر شيء أجيد فعله هو أنني أجلد
نفسي، ضحكت.. وبكيت أيضاً، بكيت لأنني لم
أتعلم كيف أواسي نفسي وأربت عليها إلا بعد
الكثير من التوبيخ والدروس المحفّظة كي لا نكرر
الخطأ، ولكن ما بها؟ فلنكرر الخطأ..
لن أستطيع تغيير الكون كما كنت أحلم لو لم أغير
نفسي، لو لم أتعلمني.
والآن أنا أتعلمني.

أَتَقْبَلُ حَسَاسِيَّتِي الْمَفْرُطَةَ، أَحْدَاثَ طِفُولَتِي
الْحَزِينَةَ، وَمِرَاحِقَتِي الْمَتَخَبِطَةَ، طَرِيقَةَ تَفْكِيرِي
وَتَمَرُّدِي، مَلَاخَ وَجْهِهِ وَأَفْكَارِي الْمَلْحَدَةَ
وَالْمُتَشَدِّدَةَ، حَيِّ لِلْسَّهْرِ، حَيِّ لِلْحِكْمِ، حَيِّ
لِلْإِحْتَوَاءِ، أَتَقْبَلُ كَوْنِي رَمَادِيَّةً فِي كَثِيرٍ مِنْ
الْأَوْقَاتِ، كَوْنِي ظَالِمَةً وَكَوْنِي ضَحِيَّةً، كَوْنِي
مَتْرُوكَةً وَكَوْنِي مَحْبُوبَةً، نَجْلِي وَجِرَاتِي وَكُلَّ شَيْءٍ
وَعَكْسِهِ، كَيْ أَغْيِرَ الْعَالَمَ وَأَحْمِلَ السَّمَاءَ وَأَرْكُضَ،
يَجِبُ أَنْ أَتَقْبَلَ سَعَةَ صَدْرِي لِكُلِّ أَحْدَاثٍ
حَيَاتِي الْمَتَخَبِطَةَ، وَفِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ ضَيْقَهُ.
فِي عَامِي الْعَشْرِينَ، لَا مَزِيدَ مِنْ أَنْصَافِ
الْأَحْلَامِ.

أخبرني طبيبي أنني أعاني من فقدان الذاكرة
التفككي؛ لم يستوعب عقلي أن يخرج كل شيء
عن سيطرته، فاختار أن يُسرب بعض الذكريات
والأحداث المؤلمة التي حدثت مؤخراً كي يستطيع
البقاء.

أخبرني أن اللاوعي يحاول حمايتي لأن التجربة
كانت أقسى من أن أحملها بمفردي، لذلك يلجأ
عقلنا للحيل الدفاعية وجبَ الحقيقة عن الوعي،
ولكنني لم أنسَ الواقعة، لم يخبُ الألم، أنا فقط
أصبحتُ خاوية؛ الوجوه مغبشة، الأسماء غير
واضحة في ذاكرتي، وهناك أحداث ذات قيمة
حقيقية مُحيت، حتى قدرتي على الكتابة تأثرت؛

أصابني تذكر الألم ولكنها نسيت الحدث، لأول
مرة أكتب وأنا أشعر بالخواء، عقلي فارغ ولكن
قلبي مثقل، ولا أخفيك سرّاً فأنا لا أحاول
التذكر عنوة، لأنني كلما حاولتُ استرجعتُ
صدّماً بالخطأ، صدّماً كنتُ أعتقد أنني
تعافيتُ منها، ولكن يبدو أنها قد كُدت فقط،
كُدت بشكل عشوائي وغير منظم كي نستطيع
التعايش وأن نُكمل،

ولكنني الآن أعترف أن كل شيء يباغتني،
وشوشرة الذكريات تكبح يدي عن الكتابة، أعلم
أن لديّ الكثير لكتابه، ولكنني غير قادرة على
أن أخطو سطرّاً واحداً، ما الذي يشعرني أنني

على قيد الحياة؟ ما الذي يجعل رُوحى خائفة
مرتجفة؟ ما الحدث الذي جراه فقدت القدرة
على الإيمان بنفسى وبأفكارى وبمبادئى؟ ما
الحدث الذى شكّل ذلك المسخ بداخلى؟ وما
أكثر ما أخشى الاعتراف به لنفسى؟ ما الذى
أشتاق إليه أكثر من أى وقت مضى؟ ما الذى
دفعنى للعلاج النفسى؟ وما مدى صلابة الأسوار
التي شُيّدت عنوة عني هذه الأيام؟
كلها أسئلة وجودية وقعها ثَقِيل جداً على قلبي،
ولن أكذب عليك، الإجابة عنها كانت تحتاج
مقداراً كبيراً جداً من الشجاعة لا أمتلكه، لم
يخبرني أحد أن رحلة الغوص داخل النفس

مظلمة ومرعبة لهذا الحد، ولكن لا مزيد من
الهروب، ولا مزيد من أن تُجبر على إكمال طريق
لأنك تعلم في قرارة نفسك أنك لن تكون أنت
إذا انخرفت عنه، لن نخاف من أن نتجاهل
الحقائق ونلجأ لمسكات كاذبة، لا بأس بقليل
من الألم الآن، لا بأس بالكثير من الأغاني
السعيدة التي تحمل بداخلها الكثير من الذكريات
الحزينة، ولا بأس بخفقان قلبك إثر تعاطيك
القهوة والنيكوتين كي تشعر أنك على قيد الحياة،
أتذكر ذلك السؤال؟ لا بأس أن تترك عجلة العالم
لبضعة أسابيع أو حتى سنوات كي تكون أفضل
وقادراً على تحريك عجلة حياتك، فلتتساقط أيامي

ولتساقط أجزائي يوماً بعد يوم، لن أخاف من
أن أُشكَّلَ بأجزاء جديدة تناسبني، لن أخاف من
التجربة، لن أخاف من عدم التجربة، لن أخاف
من عدم الرضا أو الرضا، لن أخاف مما أنا عليه
الآن، أو الخوف من أن أظل عليه..

لفتت الصورةُ التي أضعها خلفيةَ نظرٍ ميثيل؛
كانت عبارة عن فتاة بُنية الشعر ملقاة على
سريرها، مهزومة لا تستطيع النهوض حتى
لاحتساء القهوة التي بجوارها، أخبرني: "لماذا
هذه الفتاة لم تنهض بعد؟" ويبدو أنه يشير إلى
أنني أضع هذه الخلفية منذ زمن سحيق، ضحكتُ
وأخبرته أنها على هذه الوضعية من أكتوبر

— "لماذا؟"

— "مجرد وعكة نفسية قاسية سلبتها قدرتها على

التنفس حتى".

أشار لضوء الشمس الذي يجعل شعرها يلمع:
"بس في شمس ونور في الأوضة، ده معناه إن في
أمل.."

قاطعته: "بس هي لسه مقامتش برضو!"
لأشعر بصوته الحنون يخبرني: "لا، قامت
صدقيني"

ضحكتُ لأننا نرmi للشيء ذاته، وسعدتُ لأنه
رأى أنها حاولت النهوض فعلاً، وأن محاولاتها لم
تؤل للفشل

أنا أعهد هذه الفتاة منذ زمن؛ أعهد لها قوة
ومشرقة، وأعهد لها أيضاً خائبة الرجاء مسلوبة
الإرادة، يُصيبها الحنق كلما صادفت شعوراً لم

تستطع يداها كتابته، كلما شعرت أنها تُدفن حية،
وأنها يجب عليها أن تتقبل كل ما لا يسعها تقبله،
تنتظر أن تُخلق فراشات جديدة في معدتها، أن
تُخلق حكايات جديدة؛ حكايات تجعلها تجد
معنى لحياتها، حياتها التي سُلبت منها وأصبحت
تحت وطأة اليأس والحزن

أعتقد أن حقيقة الصورة أنها تعبت من المقاومة
المستمرة فجعلت كل شيء يتداعى فوق رأسها
لمرة واحدة، لأن العالم مليء بالضجيج والصراخ،
وأشخاص يجعلونك تتحول لشخص قاسٍ متبلد،
عالم خالٍ من الأحضان الدافئة، الورود،
والنظرات الصادقة

انتصارها الحقيقي أنها استطاعت فتح الستارة
ليدخل نور الشمس ليُشوش على ظُلمة أفكارها،
قدرتها على تغيير بيجامتها، عدم استسلامها لمشاعر
الكراهية والانتقام، قدرتها على الإيمان
بالأشخاص رغم الإحباطات التي مرت بها،
حب ذاتها رغم عفويتها المفرطة، عدم توقف
عجلة أصابعها عن الكتابة على الرغم من أن كل
ما تكتبه مؤخرًا كان إفلاساً فكرياً.. والأهم من
ذلك كله أنها توقفت عن انتظار مَنْ ينقذ
حياتها.

مرت أربعة أيام دون أن أمسك قلماً، علاقتي
مع كتاباتي أصبحت متوترة جداً، يملؤها الفتور
وضيق الوقت، ولكن لم يمضِ نهار واحد
وغادرتني رغبتني في أن أنسكب على الورق،
وأجعل ما حبسته الأيام الماضية يتحرر، هذه
بقعتي الآمنة، دونها أفكاري تصبح كالغول

الكاسر.

يخبرني طبيبي أنني أفلح دوماً في أن أدخر
توتري وقلقي حتى أنتهي مما يشغلني، إن كان
دراسة أم عملاً؛ أتركه يغلي داخلي متربصاً لأي
فرصة حتى يتسرب من في وأنا أصبح وانفعل
على سفاسف الأمور، أوقات الكتابة فقط هي

من تدفع كل ما أخفيه إلى الخروج عنوةً، ولو
كتبت عن الموضوع مئة مرة، أو غيرت الضمائر
وتسلسل الأحداث، هنا أسرد كما أريد أنا،
أسترجع ذكريات ما حدث كما أريد، وتارة
تداهمني رغبة ملحة في إيذاء نفسي، وتارة أعتاد
الألم وأكتب دون أن تنزف يداي، احترفت
التأقلم مع الآلمي، احترفت السير وسط الجموع
دون أن تثيرهم حفيظةً خوفي، نجحتُ في
التوقف عن قرض أظافري أمامهم، ولكنني
أفشل في أوقات كثيرة، حتى انتشلي صوت
أحدهم: "ليه كذا؟ إيه اللي حصل؟" لم أفهم
سؤاله إلا حين نظرت إلى أنامل يدي فرأيت

أنني اقتلعت جزءاً كبيراً من أظافري حتى
نزفتُ،

أكره فكرة أن جسدي يرفض التواضع، يرفض
أن يكون شاهداً أخرس، الآن ضُبطت متلبسة،
وشهد الكثير على وعي يصر على التناسي، وعي
يصر على استعادة كل ما دفعه عقلي إلى
اللاوعي، ولكن ما تغير حقاً أنني لم أعد
أتوارى، لم أعد أخفي إحساسي بالذنب ولا
عقدي النفسية التي تدفعني للتصرف بشكل
أحمق، أتعلم أن بداخلي حيوات كثيرة وأريد
أن أعيشها في ذات اللحظة، لا أتوقع على ذاتي
ولا أمسك لها سوطاً، لأنني بحاجة لجرعة شجاعة

كافية لأكسر تلك القوقعة التي حُبست فيها لمدة
طويلة، رغم إخبار عقلي لي أننا دون هواء هذه
القوقعة سنختنق.. سنختنق أكثر بداخلها لأنها
ليست على مقاسنا.

ركضت ابنة أختي نحوي عندما وجدتني مُنكبةً
على وِرقِي، تندفعُ من يدي الحروفُ بقوة وتأخذُ
معها طاقتي ومحاولاتي ودموعي، اقتربتُ مني
خائفةً من خربِ الدموعِ على خدي، لا تتجرأُ على
طلبِ إجابةٍ لبكائي، طبطبتُ على كتفي بيدها
التي لم تبلغِ التسعِ سنوات، واحتضنتني، ثلثُ
إنسانٍ في حضنِ إنسانٍ كامل، جزءٌ يحاولُ أن
يضمَّ أربعةَ أضعافه، أعلمُ أنها تشعرُ بنارِ القهرِ في
أحشائي، هل رأيتِ من قبل يا "شيكو" بركاناً
يبكي؟ فعلى حسبِ كلامها لي، كانت هذه أولُ
مرةٍ تراني فيها أمتلكُ مشاعرَ وأبكي مثل البشر،
وكما قالت: إنني كنتُ كالبحرِ أمامها طيلةَ عمري،

فما الذي حلَّ بي الآن؟ هم يبكي وهم يضحك يا
"شيكو" فما وراء الحجر كان شلالاً كامناً، فيضاناً
من وراء السد، والآن حان وقت انهيار السد
حاولت إبعادها عن أحضاني وأن أعود لصورتي
التي في بالها، ولكنها تشبثت بي بشدة، لا تريدُ
إفلاتي، تنظرُ لدموعي بأسى ثم تعودُ لحضني:
"ماذا حلَّ بكِ يا خالتي؟" ذلك كان آخرَ ما
سمعتُه قبل أن تُشوشَ أصواتُ أفكاري على
صوتها، لا أعلمُ يا "شيكو" وددتُ أن أخبرها
أنني فقدتُني، أشعرُ بالتيهٍ يجولُ في جسدي، تلك
الذكرياتُ تنحرنِي، كلُّ أمنيةٍ حلمَ بها قلبي وصدقها
عقلي، وقعتُ في المنطقة الرمادية، تلك المنطقة

التي أقسمتُ ألاّ تطأها قدمي، دوامة اليأسِ
والانتظار تبتلعني، رغم يقيني أنني مُعلّقةٌ في
جبلٍ دايب سيخنقني ولكنني لا أستطيعُ تركه،
وددتُ أن أخبرها كم أنّ العالمَ ثَقِيلٌ جدًّا على
قلبي، وددتُ أن أخبرها بكل ذلك بدلاً من أن
أُتَحمَجَ لها بأنّ بطلَ روايتي مات، وأني حزينةٌ
عليه.

انتظرتُ شيئاً ما، شيئاً غامضاً يقودني لأن أكون
معك، حتى أُصبتُ بمرض عُضال يُسمى الأمل؛
أملٌ لا شفاء منه، أملٌ في أن أكون معك، وأن
يجمعنا بيتٌ واحد، لم يعد قلبي يحتمل الصحو،
لذا أفضل أن أظل في غيبوبة الحلم هذه لأطول
فترة ممكنة، حتى أفنى، أو تبتلعني، أيهما أقرب.
وعلى الرغم من أن علاقتنا مُشربةٌ بكل
عنصريّات المجتمع؛ فبيني وبينك بلادٌ وشوارع،
ورأيُ أبيك الشرقي، ودعواتُ أمك، وكلامُ
الناس الذي لا ينتهي، وكنزةٌ سوداء أحباها عليك
كثيراً، والكثير من الشوق والشوك..

أنا هنا، رغم تخبّطاتي ونزاعاتي، لا تزال أنت
ثابتي الوحيد، ولا يزال قيصك وحده يُعيد إليّ
بصيرتي، ووحدك حبيبي الذي أبكي عليه،
وحدك من يحق له التفلسف بشرقية، وأن يكون
محللاً سياسياً ودينياً وقتما أراد، ووحدك من
يحق له أن يزاحم وقتي ويجعل الناس يفر من
عينيّ فقط لنتحدث، وحدك من تجعل قلبي
ينتفض، ومن تدبُّ فيّ الرغبة في الحياة.
أمرنا يبدو معقداً جداً، ويبدو أنني أُصبتُ
بالجنون إثر رحيلك؛ حيث تملكني الغضب
لعجزتي عن التخطي، ولتفنُّ عقلي في تذكيري
بكل ما بيننا، ولانتكاساتي المتكررة، ولرغبتني

العارمة في أن أكون معك.. وخوفي من ألا
أكون.

الثالث من مارس

شاركني طبيبي حقيقة مرعبة حول التعافي، وهي
أنك ستصبح بعده شخصاً آخر تماماً غير الذي
كنته أثناء النكبة، ستتوقف أفكارك التي كانت
تغذي عقلك وسيصبح خالياً، يُعيد بناء مدخلاته
ولذاته، سيجعلك تشعر وكأن هناك صفاءً من
النمل يركض في عقلك ذهاباً وإياباً، سيُخز جلدك
ويجعلك شبه خالٍ، ستود أن تفعل أشياء ربما لا
تشبهك، أشياء جديدة وغريبة، وربما تنفر من
كل شيء قديم اعتدته، وصدقاً، هذه قصة
مرعبة تجعلني أود أن أرفض التعافي بشتى طرقه
وإلاّ أخوض هذه الرحلة لكثير من الأسباب،

فكيف يمكن أن يُهدم ما كنتُ عليه لنعيد بناءه
على نظافة؟ طيببي العزيز، إن ما جعلني أتوجه
لك هو أن حياتي بالفعل تهشمت فوق رأسي؛
معتقداتي، جذوري، وإيماني ورغبتي الحقيقية في
الحياة أو في أشياء بعينها، أنا فعلاً في هذه النقطة
التي سيجعلني أصل إليها التعافي، وهي أن نبدأ
مجدداً، ولكنني أضعف من أن أبدأ مجدداً
وأترك طريقي القديم بكل مشاعره، بكل خطوة
خطوناها معاً، وأغنية استمعنا لها في الطريق، إن
ما يجب فعله في هذه الرحلة أكبر من قدرتي
على فعله، فأنا لستُ جزءاً منفصلاً عما عشته، أنا
بين ذراته، أنا هناك في كل شيء، ماذا لو

استيقظتُ كما أخبرتني شخصاً جديداً، تائهاً
أضعاف توهمتي تلك؟ شخصاً لا يرغب في أشياءه
القديمة، وربما لا يريد حتى إلقاء النظر على ما مر
به، فمن أكون أنا وقتها؟

أشعر أنني باهتٌ جدًّا، ومحاولاتي لأُنير مجدداً
تؤول للفشل، هناك شيءٌ ما في قلبي انطفأ، ذلك
البريق الذي كان يجعلني أنتفض وأبرق، أبتسمُ
وأثأر، قد نحمد؛ لأبقى هكذا خاوياً، أترنح مع
الأيام، أدفعها لتمر، وهي لا تمر في أوقات كثيرة
أصبحتُ مُتيقناً أنني سأظل في هذه الحلقة ما
حييت؛ سأسمح للنيران أن تأكلني ثم أخبو للأبد،
اعتدتُ أن أعاقب نفسي هكذا عندما تجتاحني
مشاعر أقسمتُ ألاّ أشعر بها مجدداً؛ أدعها
تأكلني وتتلفذ بي حتى أنفحم وتلفظني خارجها،
لطالما تمنيتُ أن أكون من الأشخاص الذين
يأكلون الحزن لا يأكلهم، ولكنني أفشل حتى

في الخروج من طغيانه على بدني، أكاد أجزم أن
هناك روحاً سوداء تبتلعني، تُثقل قلبي، وأحس
بنفسي أزداد ثقلًا، أشعر بمرارتها تعبر من معدتي
لحلقي وتشلُّ حركتي، لا أستطيع أن أصف لك
بالتحديد ما أشعر به، ولكنني أستطيع أن أؤكد
لك أن ثمة أشياء غريبة تحدث في جسدي،
أشياء غريبة ومخيفة.

لماذا "آخر أيام الترام" بالتحديد؟ إن كنت لا تعلم
فإن قرار إزالته قيد التنفيذ، لا أستطيع تخيل
الإسكندرية دون الترام، لن يتبقى لنا سوى
ذكرياتنا معه، وذلك شيء قاسٍ جداً، أن تبقى
لنا الذكريات فقط، نتجرعها بأسى ولا حول لنا
ولا قو، وذلك كان حالي عندما خطوتُ نحو
الإسكندرية هذه المرة بالتحديد؛ تائهةً وخائفةً،
ولا أملك شيئاً سوى ذكرياتي التي تمتلكني ولا
تود مغادرتي أبداً، ولا أنا أود مغادرتها، ولكنها
تثقلني وتجعلني أدخل في حالات انهيارٍ غير
مبررة، هذه أول مرة يستقبلني شط الإسكندرية
بهذه الجروح، أقسم إنه لم يعرفني، حتى بعدما

لامستُ مياهه أطراف قدمي وانغمستُ في
رماله، لم يعرفني.. شوائي هذه المرة غريبة،
تركتُ نفسي لأواجه كي تسحب من جسدي
ما لم يخرج في دموعي وكتاباتي، تركته يسحب
أمنياتي غير المكتملة وخيبة آمالي، ويهدئ من
روعي حول كل ما هو آتٍ.

أقاوم فكري حول: لماذا لست هنا الآن؟ لماذا
أصبحت مجرد نص رثاءٍ حزينٍ أكتبه وبرد
الإسكندرية القارس ينهشني؟ أشعر أنني أأكل
بطء، وكلما قاربتُ على لمس خيط النجاة أضيع
مجدداً، أسقط وأتعثر والذكريات تباغتني،
اعتقدتُ أن بذهابي لبلد لم تطأها قدمك

سأتحسن ولن أُصاب بنوبات "نوستالجيا" حادة،
ولكنني أخطأت، أنا لا أزال أريدك، ولا أزال
أتذكرك على الرغم من جهودهم الكبيرة كي لا
أفعل، يهددونني كطفلة فقدت لعبتها،
يحضرون لي أشياءي المفضلة، يبعدونك عن عقلي
لأستطيع أن أعيش، أن أضحك وأكتب وأخرج
من شرنقتي، ولكنني أعود لأنهار، ليست السماء
وحدها من تثور، بل عيناى وقلبي، ليس البحر
وحده من ينقلب ويصاب بالنوبات، بل عقلي.
ولكنني لن أخفيك سرّاً، جميع الأشياء ساهمت
في شفائي بشكل جيد؛ تعبقت رثي برائحة
جديدة، لامستُ أيادي أخرى، بكيتُ في

أماكن جديدة مع أشخاص جدد، تناولتُ
الآيس كريم مع صديقي الذي رأيته للمرة
الأولى، وصنعتُ القهوة مع صديقتي التي مكثت
معي الليل بطوله وتقاسمنا الأحاديث، والقهوة،
والنيكوتين والكثير من الخيبات والأغاني
الحزينة، حصلتُ على هدايا جديدة وعناقات
جديدة ووداعات جديدة..

على مدار رحلتي تلكِ متُّ وحيثُ ما يقارب
العشر مرات، نزلتُ كثيراً من شدة الركض
والرقص، نعتوني بالجنونة عندما تركتُ مسامات
وجهي تحترقها أمطار الإسكندرية، فككتُ
جدائل شعري وارتميتُ للخلف، أشعر أنني حية،

أني حرة، لا سلطان عليّ غيري، سأكون كاذبة
إن أخبرتك أنني مستعدة للبداية من جديد الآن،
أنا لا أزال خائفة ولا أزال أريدك، ولا أريد أن
تُصبح كذلك الترام؛ مجرد ذكرى مخزنة في
العقل، حتى آثاره على الأرض ستمحوها عوامل
الزمن.. أخشى أن أظل أراك من بعيد ولا
أقترب منك أبداً، والأسوأ من ذلك ألا أراك
من الأساس، وتبعدنا الحدود بكافة أشكالها ولا
نلتقي أبداً، كل ما سيظل لي وقتها هي صورتك
المخزنة في عقلي، التي أخشى أن تتأثر مع الوقت
وتبهت ملامحك، وأنسى أيامنا الجميلة، ووقع
صوتك على أذني..

آخر ايام الترام

كان ياما كان

ينتشاني من شرودي صوتُ زامورٍ خاضبٍ
انطلق من سيارةٍ أوشكت على اصطدامي؛
أتحنى بعيد ، وأدرك أن كل أحزان حياتي
التي أتيتُ بها من قرיתי تنزف هنا أمام عيني
لتعميني، تلك الجروح التي تحاول الالتئام
هنا، كي لا أعود بها مجدد من حيث أتيت،
إنها الإسكندرية يا سادة! هنا أشعر أنني
مستعدة لمواجهة العالم، والولادة من جديد،
هنا في قلب المدينة الراقصة الأنيقة..

أستير ثابت

يا قوت